

## بلادي بين الخير والشر تنشد الخلاص



أحمد عاجل الربيعي

التحف

أن نحتلها، لن يسود إلا القوي في النهاية. كل شيء في العالم الطبيعي الضعيف مدى الحياة سوف يتم تدميره بشكل لا يطاق. في العقود القليلة الماضية، أخطأت البشرية بشكل رهيب ضد قانون الانتقاء الطبيعي. لماذا نتحفظ بالحياة التي لا تستحق؛ لماذا سمحنا لها بالتكاثر!

أفقاد هؤلاء يبذلون الكارزى! بعد ثلاث سنوات من عرض الفيلم لم يكن مفاجئاً، أن تبدأ المؤسسات العقلية الألمانية في قتل الآلاف من المرضى الأبرياء بالغاز. من الواضح تماماً أنه لا يوجد أي أساس حقيقي للقانون الأخلاقي بخلاف قانون الغاب، بصرف النظر عن قاض متعالٍ، كما قالها الملحد الشهير ريتشارد دوكينز:

هذا هو أحد أصعب الدروس التي يتعلمها البشر. لا يمكننا أن نعترف بأن الأمور قد لا تكون جيدة أو شريرة، لا قاسية ولا مجازية، ولكن ببساطة قاسية – غير مبالية بكل المعاناة، تقتدر على كل الأغراض ..

### خسارة حرب

الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه بعد خسارة ألمانيا للحرب، حوكم قادة النازية الألمان في نورمبرك، مع بدء محاكمات نورمبرك، أثرت أسئلة بشأن القوانين التي ينبغي استخدامها للحكم على النازيين. قبل بدء المحاكمة، كان الحلفاء قد أعدوا محكمة ميثاق تتألف من القواعد الإجرائية وقواعد الإثبات والقوانين التي ستتم بمقتضاها محاكمة النازيين. وادعى المتهمون النازيون أنهم يحاكمون بموجب قوانين بائتر رجعي، وانتقدت عدة سلطات في القانون الدولي قضاة الحلفاء لنفس الأسباب. اعتبر النازيون الذين حوكموا أنهم اتبعوا باستمرار أوامر بلدهم وحكومتهم وأن أفعالهم كانت في طاعة القوانين المعمول بها في ذلك الوقت. لقد جادلوا بأنه لا يمكن إدانتهم لجرم أن سلوكهم انصرف عن قيم نظام النازيين.

بعد مقتل المئات في العراق بحسب ما أعلنت سابقاً مفوضية حقوق الإنسان العراقية، وتزايد حالات خطف الناشطين واعتقالهم، بدأ مجلس الأمن يطالب بإجراء تحقيقات واسعة بشأن أعمال العنف والقمع التي يتعرض لها المتظاهرون في البلاد.

كما أعرب المجلس في عدة بيانات عن موقف أعضائه كما في هذا المقتطف: “أعرب أعضاء مجلس الأمن عن قلقهم البالغ إزاء مقتل متظاهرين، وكذلك بشأن عمليات القتل والتشويه والاعتقالات التعسفية للمتظاهرين المسلّحين”. كما أكد قلقه البالغ حيال تورط جماعات مسلحة في عمليات قتل واستهداف المتظاهرين في العراق.

وبحسب تقرير يونامي، فإن رجالاً مسلحين مجهولين يُطلق عليهم “مليشيات” أو “كيبات مسلحة” وثمة من يقول إنهم “خارجون عن القانون” ومفسدون، هي جماعات مسؤولة عن القتل المتعمد واختطاف المتظاهرين. وطالب التقرير الحكومة بتحديد هوية هؤلاء الأشخاص وتقديمهم للمحاكمة وتحمل المسؤولية لحماية الشعب والمتظاهرين السلميين من بطش الجهات المسلحة التي تعمل خارج سيطرة الدولة.

قالت هيومن رايتس ووتش إنه، منذ بدء المظاهرات، يبدو أن السلطات تدخلت في وسائل الإعلام والاتصالات، منتهكة الحق في حرية التعبير. إذ إن بيان صادر عن نقابة الصحفيين العراقيين في 17 أكتوبر/تشرين الأول مداممة مكاتب القنوات الإخبارية مثل “العربية”، و”نبطجة”، و”إن آر تي”، و”الصدى” و”تي آر تي” من قبل مسلحين ملثمين، بعضهم يرتدي الزي العسكري، ويبدو أن المداممات هدفت إلى منع التغطية للتظاهرات.

الخوف العراقي مُزّمة بموجب القانون الدولي لحقوق الإنسان بحماية الحق في التعبير السلميين. لا تُعتبر المشاركة في مظاهرة، حتى لو كانت بدون تصريح، أو الانتقاد السلمي للحكومة، أسباباً كافية لتوقيف المتظاهرين. بموجب القانون الدولي، على السلطات أن تفرج عن جميع المتظاهرين الذين لم تُسبب إليهم اتهامات بجرائم محددة.

عموماً يجب أن يتحلى المجتمع الدولي بالشجاعة لمواجهة ما يتعرض له الشعب العراقي في هذه الفترة إذ أنها تندرج تحت مسمى بالانتهاكات “الخطيرة” للقانون الدولي الإنساني. ولا سيما وجود سوابق قضائية واسعة وثابتة منذ الحرب العالمية الأولى وحتى يومنا هذا.

ختاماً لا أجد أبلغ من كلمات الشاعر الكبير أحمد مطر تعبيرا عن الواقع الاليم اليوم في العراق لأنني به كلامي:

”بين وبين قاتلي حكاية طريفة

فقبل أن يبعثني ظفني بالكعبة الشريفة

أن أحبس الدماء عن ثيابه الشريفة

لأنه سوف يصلي بعدما يفرغ من تادية الوظيفة.

قد يعتقد البعض أن الكون لا يمتلك أي مغزى، لكن لما لا يترك لكل فرد الفرصة لإعطائه ذلك المغزى. لدينا جميعا الفرصة كي نجعل من هذا الكون الفسح، نبولر المعاني في كل شيء، مهما قد يتكون صغيرا.

الأفعال التي نقوم بها، قد تبدو غير مهمة ضمن الإطار الواسع لهذا الكون، لكنها يمكن أن تحدث فرقا كبيرا في حياة الآخرين. يمكننا أن نجلب الراحة والبهجة لحياة الآخرين، أو يمكننا أن نجلب الدمار والبؤس لكن مفهوم الخير والشر هو ذاتي إلى حد ما. ما يبدو جيدا بالنسبة لفرء أو مجموعة من الأشخاص قد يبدو شريرا لمجموعة أو فرد آخر. كل هذا يتوقف كليا على ما إذا كان التصرف يعتبر ذا فائدة للمراقب. الشخص الذي يجرح أو يقتل شخصا يهاجم أسرته، يُثمن فعله من قبل أصدقائه وأفراد أسرته، وكذلك من قبل ذاته بينما لا يعد شريرا فعل المهاجم، بينما من نقد الهجوم ينظر هو وأسرته وأصدقائه إلى العمل الدفاعي، كشر.

لا يبدو الأمر شائكا لهذه الدرجة. بينما كنت أطلع، مرتت بهذه الكلمات في العهد القديم التي تقول: ”وَيْلٌ لِلْقَائِلِينَ لِلشَّرِّ خَيْرًا وَالشَّخِيرِ شَرًّا، الْجَاعِلِينَ الظُّلْمَ نُورًا وَالنُّورَ ظُلْمًا، الْجَاعِلِينَ المُرُّ حَلْوًا وَالْحَلْوُ مرًّا.” (سفر إشعياء 5: 20).

من الذي يحدد الخير وما هو الشر؟ هل أنت وأنا نستطيع تحديد ذلك؟ في مجتمعنا اليوم هل نجرؤ على تسمية الخطيئة، حتى لو كانت مقترفة من الأغلبية؟

المجتمع قادر على الاستمرار باعتماد قواعد معينة أقدم أفرادها. عندما يخرق شخص ما هذه القواعد، فإنه يجعل استمرارية المجتمع صعبة. ينطبق هذا على كل المجتمعات مهما كانت طبيعة ذلك المجتمع وخلفياته.

منطقيًا، يكون الأشخاص الذين ينفذون القواعد “جيدين” والأشخاص الذين يخالفون القواعد “شريرين”. المجتمعات تضع العقوبات أيضا لأولئك الذين يخالفون القواعد، وأحيانًا مكافآت لمن لا يخالفون القواعد.

قد تفعل ما تشاء بجسدك قد ترسم نفسك تعبد ضعداً أخضراً كبيراً، وبذلك فانت لا تفعل شيئاً جيداً أو شريراً. ومع ذلك، إذا قمت برسم حشد من الناس وكانوا يفعلون نفس الشيء، فإن المشاعر ستتأجج في مقر العبادة الحلية، وستستشعر بالتهديد لبنيته وسلطتها. لذلك، فهي، من أجل استعادة أبناء رعاباها، ستدعوك بالشرير.

### عكر الصفو

نحن نعيش في وقت يشعر فيه الناس بالغيرة حقاً بشأن الخطأ الذي عكر صفو مجرى حياتنا. واقعاً هناك الكثير من عدم الاستقرار في حياة الناس. عندما ننظر إلى حياة مختلف الفئات العبرية ولا سيما الناضجة منها، يبدو أن هناك الكثير من الارتباك الأخلاقي. كيف يحدد الفرد اليوم ما هو الصواب أو الخطأ؟ هل يمكن إلقاء اللوم على أحدهم لمبارتهه بالاحتجاج لأنه سأم الفكر والعوز؟ هل أصبح كيان الإنسان محكوماً بالموت البطيء في هذا البلد؟ هل من العدل قتل الصبيان ومنهم من لم يبلغ من العمر حتى 19 عاماً لأنه أراد حياة كريمة. أبعقل أن نستباح الحرمان وتسفك الدماء للنساء والرجال، لأنهم أرادوا وطن.

ما هذا الواقع المفلوط الذي جعل مافيات السرعة أو ما سُمي أحزاب المقاولاة التي لم تتروك لا صغيرة ولا كبيرة من حرم القانون لم تنتهكها، محمية بالجيش والشرطة والمليشيات. والشعب بضيقه وشبابه المطالب بالحرية والعيش الكريم يغمغم وينكل به من قبل هذه المافيات ومن يحميها. فأين الشر وأين الخير.

يقتل هذا الشعب الأعزل، وبأي مبرر. هل أصبحت فجأة ممن اتبعوا نظرة نيتهه الدنيوية للعالم، وأصبحت أساس تفكيركم. للنظر في هذا الأمر نحن مضطرون للعودة للتفكير في أدولف هتلر، الذي تأثرت حياته تأثراً عميقاً بكتابات نيتهه. إذا تم إعطاؤنا الفرصة لتحدي هتلر وجهاً لوجه وسؤاله عن الشر الذي اقترفه بقتل ملايين الأبرياء، لكان قد أجاب بأنه لا يوجد ما هو خاطئ في أعماله، وأنه من أجل الصالح العام للبشرية. سباق. هذا ضربات في قلب طبيعة الأخلاق. لقد كان يعتقد أن بقاء الأصلح هو حقيقة طبيعية، وكان منسجماً مع هذه الحقيقة. كان يعتقد بوضوح أنه كان يحسن الجنس البشري عن طريق تخليص المجتمع من الكائنات الدنيا. كان يعتقد أنه لا يوجد شيء غير أخلاقي فيما كان يفعله.

أمن هتلر بالتأكيد على رؤية الشعب الألماني للعالم، من هتلر بإنتاج فيلم دعائي وعرضه في دور السينما الألمانية. الراوي في الفيلم كان يقول:

”أينما يضعنا القدر، أيا كانت المحطة التي يجب

الوصول إلى الحقيقة والمساءلة، دون كيد أو حقد وذلك بجبر الضرر ورد الاعتبار للضحايا وتعويضهم مادياً ومعنوياً وإصلاح النظام القانوني، والهدف هو الوصول إلى المصالحة المجتمعية والتطهر من حالة العنف والعودة إلى السويّة الإنسانية.

وإذا كان العنف قديماً قدّم البشرية وهو القاعدة وليس الاستثناء، إلا أنه اكتسب بعداً أكثر وحشية وهدماً وهلاكاً في عهد الحداثة وتطور وسائله، خصوصاً بعد أن تجاوز العنف الراديكالي إنسانية الإنسان لدرجة التوحش، علماً بأن الاضطراب إلى الدفاع عن النفس ورد العنف لا يندرج ضمن قاعدة ممارسة العنف، بل هو الاستثناء العكس، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، في دفع ظلم أو لدفاع عن مظلوم أو في مقاومة احتلال أو صد عدوان، وذلك في مواجهة العنف والهادف للتسديد والتفوق والذلال الأخر والقائم على الاستعلاء والكراهية دون أي اختراقات للجانب الإنساني والحقوق والقانوني.

وينطلق المرتكبون في ممارستهم للعنف من نزعات أيديولوجية مركزية شديدة الصرامة أو ما فوضها، أوجدتهم وصيرتهم على نحو لا إنساني وغير مكثرت بممارسة العنف، لا باعتباره عملاً شبيهاً أو غير مشروع أو لا إنساني، بل بصفته عملاً عادلاً ينبثق من شرعية معتقدتهم.

□ باحث ومفكر عربي

# العنف الراديكالي

استخدمت الولايات المتحدة ذلك في حربها على أفغانستان العام 2001 وكذلك في احتلالها العراق العام 2003 باعتبارهما دولتين مارقتين، وأن دينهما يحض على العنف والإرهاب.

وهكذا يتم استخدام العنف بتوظيف القانون الدولي أم القوانين الداخلية لإضفاء الشرعية على الاستهداف الجماعي لجاميع ثقافية بشرية. وعلى الرغم من وجود أسباب عديدة لممارسة العنف بعضها اجتماعي وآخر نفسي أو عنصري أو ديني، لكن تلك الأسباب وحدها غير كافية لتفسير هذه الظاهرة، فتمة منظومة أيديولوجية تربط بين الغاية والوسيلة، فالوسيلة جزء من الغاية ولا يمكن فصلها عنها، أم حسب المهاتما غاندي، فالوسيلة إلى الغاية مثل البذرة إلى الشجرة، الأمر الذي يستوجب البحث عن جوهر ظاهرة العنف ودوافعها، لا سيما بتفكيك مكوناتها وشبكة علاقاتها لتتصدي لها وصولاً إلى مطمح المانعنف، سواء على المستوى الإنساني الخاص، أو على المستوى الدولي العام، وبما يحكم علاقات الأفراد وسلوكهم وعلاقات الدول وقوانينها.

### سلطة القانون

وفي الظروف غير الاعتيادية والتهيار سلطة القانون، فتمة حفل جديد لاحتواء ظواهر العنف ومنع الانتقام والثأر وتحقيق قدر من العدالة وهو ما يُطلق عليه العدالة الانتقالية التي هدفها

وأخواتها الإرهابية. ولعلّ المسوغ الأيديولوجي بسبب العرق أو السلالة أو الدين أو المذهب أو اللغة أو اللون أو الجنس أو الأصل الاجتماعي هو الذي يقف وراء تصنيف الناس إلى فئات مختلفة، فمنهم من هو أعلى جدير بالحياة والتسيد، وآخرون من هم أدنى وقد لا يستحقون العيش، ولذلك فإن الحرب على الآخرين ذات وجهـة ومقبولة، مظلما تذهب إلى ذلك الأيديولوجيات العنصرية التي تفترض الأفضلية البيولوجية والتفوق العرقي أو الديني أو غيره، بتهمئة إعلامية ديماغوجية ومنهجية استعلائية ضد الآخر.

ومثل هذا العنف الراديكالي لا يقتصر على الصراعات الداخلية فحسب، بل إن أبلسة” أم وشعوب ودول وأديان وجدت طريقها إلى بعض التيارات الشعبية في الغرب، حيث ترتفع وتيرة الكراهية للأجانب بشكل عام والمسلمين بشكل خاص، وقد

لم تعرف البشرية عنفاً كالذي شهده العالم منذ القرن العشرين ولغاية الآن، فقد زاد عدد ضحاياه في الحرب العالمية الأولى على 20مليون إنسان وتعدي عددهم الـ 60 مليون إنسان في الحرب العالمية الثانية، وكانت جريمة قصف هيروشيما وناكازاكي

بالقنابل الذرية إحدى أبرز جرائم العصر، وهو ما يدعو للقول إن العنف أصبح أشد بأسا وأوسع انتشارا وأكثر إبلاماً، ويمكن أن نطلق عليه العنف الراديكالي. وبرزت أنظمة كثيرة محافظة أم تقدمية، رأسمالية أم اشتراكية مثل هذا العنف، لاعتبارات أيديولوجية أو قومية أو دينية، وحاولت شرعنته، وإضفاء عدالة على ممارسته، وإلا كيف يمكن تفسير اللجوء إلى التطهير العرقي أو الديني وتعريض أتباع أعراق وأديان إلى عمليات إبادة جماعية واستخدام أسلحة محرمة دولياً، بما فيها الأسلحة

## حظيرة الحروب المدنسة

# جميع الوسائل متاحة في خدمة تحقيق الغاية



حسين الذكر

بغداد

بلدنا وحماية مملكتنا دون البحث عن أي تبرير أو لتعليل للأساليب التي تحقق ذلك) .. بعد قرون وإجبال وفي ذروة انطلاق الإنسان نحو الحضارة الحديثة قال تشرشل رئيس الوزراء البريطاني وأهم أبرز وزراء الاستعمار الحديث قولته الشهيرة: ( ليس لبريطانيا العظمى أعداء عالم – بمعزل عن عناوينها التي تطلق حسب رغبات ونزوات من أشعل فتيلها مقدسة كانت أم مدنسة – استخدام أشكال صور القتل والدمار والتخريب لأجل استسلام الآخر.. هنا يذكر لنا التاريخ العالمي مقطعاً مبرحاً نادراً وجميلاً حد الطرافة حينما تعترض أقلية من برلمان اسبرطة على قرار الملك بعد شنه هجوماً واحتلال أثينا برغم عقد التحالف الموقع بينهما .. فقد قال المعارضون: ( أن كسر التحالف من قبلنا دون أي مسوغ وبلا سابق انذار يعد عملاً غير أخلاقي .. ) أن الملك رد حازماً بدرابة سياسية لا تحتل معنى آخر: ( أن العدالة تكمن في مصالح

منذ اقدم العصور ومع نشوء المجتمعات الإنسانية على خطى تلمس الحضارة التي كان اسها التنافس والاستحسان والسيطرة والغلبة عبر كل الوسائل المتاحة لغرض تحقيق الهدف وفقا لنظرية ( الغاية تبرر الوسيلة ) التي تعد أكثر النظريات السياسية صراحة ووقاحة .. شهدت جميع حروب العالم – بمعزل عن عناوينها التي تطلق حسب رغبات ونزوات من أشعل فتيلها مقدسة كانت أم مدنسة – استخدام أشكال صور القتل والدمار والتخريب لأجل استسلام الآخر.. هنا يذكر لنا التاريخ العالمي مقطعاً مبرحاً نادراً وجميلاً حد الطرافة حينما تعترض أقلية من برلمان اسبرطة على قرار الملك بعد شنه هجوماً واحتلال أثينا برغم عقد التحالف الموقع بينهما .. فقد قال المعارضون: ( أن كسر التحالف من قبلنا دون أي مسوغ وبلا سابق انذار يعد عملاً غير أخلاقي .. ) أن الملك رد حازماً بدرابة سياسية لا تحتل معنى آخر: ( أن العدالة تكمن في مصالح

هنا تكمن طرافة تعريف السياسة بمعنى ساسة الخيل . اذ يؤرشف لنا بعض مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المنحرفة المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914

مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914 لدخول الحرب وقد أصدرت قيادتها فرمانا قرار يقضي بإلقاء القبض على كل البغال والخراف والخيول التي تقع ضمن حدود مناطق الجيش لغرض الإفادة منها في الحرب ..

مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914 لدخول الحرب وقد أصدرت قيادتها فرمانا قرار يقضي بإلقاء القبض على كل البغال والخراف والخيول التي تقع ضمن حدود مناطق الجيش لغرض الإفادة منها في الحرب ..

مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914 لدخول الحرب وقد أصدرت قيادتها فرمانا قرار يقضي بإلقاء القبض على كل البغال والخراف والخيول التي تقع ضمن حدود مناطق الجيش لغرض الإفادة منها في الحرب ..

مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914 لدخول الحرب وقد أصدرت قيادتها فرمانا قرار يقضي بإلقاء القبض على كل البغال والخراف والخيول التي تقع ضمن حدود مناطق الجيش لغرض الإفادة منها في الحرب ..

مؤرخي الحرب العالمية الأولى تفاصيل مهمة ووقائع تعد جزءاً من العمود الفقري للحرب الكونية القائمة على شعارات رنانة تعبر عن التحرير والدين والمجتمع .. لكنها في الحقيقة تستهدف الإنسان لتحقيق أغراض ذلك الحديث الظلامي ورأسمي خطفه .. تقول بعض كتابات الحرب الأولى أن تركيا اتخذت بعض القرارات المبكية حينما أعلنت النفيير العام عام 1914 لدخول الحرب وقد أصدرت قيادتها فرمانا قرار يقضي بإلقاء القبض على كل البغال والخراف والخيول التي تقع ضمن حدود مناطق الجيش لغرض الإفادة منها في الحرب ..